مجلة العاصمة

مجلة بحثية سنوية محكمة

المجلد العاشر، ٢٠١٨ م

معامل التأثير العربي: 2.165

ISSN (Print) : 2277-9914

e-ISSN (Online) : 2321-2756

قسم اللغة العربية، كلية الجامعة
ترونتبرم - ٦٩٥٠٣٤، كيرالا، الهند

أنثروبولوجيا الثقافة: البنية المعرفية وسياق التواصل الحضاري

د. عبد الرحمن محمد طعمة

DR/ Abd al-Rahman Mohammad Teama

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة

aaubad@cu.edu.eg

ملخص:

تتناول هذه الدراسة بحث الجذور الثقافية للمعرفة الإنسانية من خلال جينالوجيا (حفريات) التطور النوعي التاريخي، الذي أدى بالنهاية إلى تطور قدرتنا على التفكير وبناء الحضارة بالصورة التي نحن عليها الآن. وتمثل الدراسة تحليلاً موجزاً لبعض مسائل الاندماج الأحيائي والفهم والسياق المعرفي وتراكم المعرفة الثقافية والتكوين النفسي للثقافة ... إلخ. فالبحت في أنثروبولوجيا الثقافة يتداخل بقوة مع عمليات التكوين التاريخي الاجتماعي sociogenesis؛ حيث التفاعل الدينامي بين الجماعات والأجناس، من جهة، ومن جهة أخرى يؤدي بنا إلى ضرورة فهم ما يطرحه فلاسفة العلم والمنظرون الثقافيون حول مسألة الوجود الإنساني وطبيعته.

يرى "توماسيللو" - على سبيل المثال - أن الجامع في هذا التطور هو المهارات العرفانية/ المعرفية/ الكلية المشتركة. ويؤكد في كتابه الشهير (الجذور الثقافية للعرفان البشري) Cultural Origins of Human Cognition ما ذهب إليه الفيلسوف النمساوي "فجنشتاين" (١٨٨٩ - ١٩٥١ م)، وعالم علم النفس الثقافي التاريخي، السوفيتي "فيجوتسكي" (١٨٩٦ - ١٩٣٤ م) من أننا بوصفنا بالبشر الناضجين واتصافنا بالإنسانية Humanism من خلال عمليات الهيمنة العرفانية الكبرى والتفكير ... إلخ، نتأمل بالضرورة وجودنا وسط المحيط الكوني، ولا نستطيع ببساطة أن ننزع عن أعيننا النظارات الثقافية لنرى العالم متجرداً من الثقافة، فنحن نعيش في عالم من اللغة التي تصنع الثقافة والحضارة وتبني المعرفة. وهو ما سنوضحه عند "ميرلو - بونتي" أيضاً.

ولذلك فإن البحث في جذور هذا التميز النوعي للجنس الإنساني هو ضرورة معرفية تكشف لنا أسرار تطورنا الحقيقي، من خلال تتبع المسار الكوني الذي نشأنا فيه، على الرغم من غموض كثير من جوانبه، وعبر سبر جوانب من ثقافتنا وحضاراتنا في الشبكة الإنسانية الواسعة، التي ينبغي أن تبقى متماسكة بعيدة عن أهواء السلطة والنزاع والهيمنة hegemony. وهو ما سيؤدي بنا إلى نتيجة خطيرة جداً بعد العرض والتحليل، هي أن بنية الثقافة الإنسانية اتسعت من مجرد المعرفة المحدودة بنطاقات ومقيدات وأطر تقليدية لتدخل في رحاب كونية المفاهيم، وما يتصل بها من معارف في العلوم الطبيعية، وهو أيضاً ما يقودنا إلى الاستدلال على ديمومة التطور الأنثروبولوجي للأفكار وللجهاز المفاهيمي في

أدمغة البشر الممثلة بقوة لنمط التعقيد الأكبر في الكون، وهو التطور الذي يندمج بامتياز مع عنف الكون وجماله في الوقت نفسه.

١. جذور الثقافة والنوع الإنساني

يرى المنظر النيوزيلندي الشهير "سايمون ديورنج" Simon During أنه إذا كان العرق يتوسط بين المجتمع والطبيعة فإن الإثنية تتوسط بين العرق والثقافة، ويرى أن الإثنية هي نوعٌ من الأيديولوجيا Ideology، بينما العرق يبدو أنه منتجٌ خطير للتحيز أو للتفكير الخاطئ^(١)؛ فالعنصرية في جوهرها اعتقاد بأن الجنس البشري عبارة عن أخطأ فرعية متميزة بيولوجيا ومنفصلة ومتمايزة، أي إنها عبارة عن أعراق، بينما توضح لنا العلوم كافتها أنه لا يوجد مثل هذا الأمر في الحقيقة، ولا وجود لمفهوم العرق بهذا الطرح. ويوضح "ديورنج" أن هذا التمييز ربما يرجع إلى حقبة ما قبل العلمية، أي إلى الآلية المفاهيمية لكُره الأجانب Xenophobia، ويقدم تحليلاً أنثروبولوجياً مهماً يرجع فيه بعض أسباب هذا التمييز النفسي داخل أدمغة بعض البشر (الذين ربما لم يغادروا مسألة الطينية البشرية إلى الارتقائية الإنسانية) إلى الأفكار البالية حول البدائيين savages وإلى الخيال الشعبي الطويل الأمد الذي يعود في أصوله إلى شخصيات عنصرية. وبذلك تتكون فكرة الأعراق من خلال مشترك ثقافي قيمي معين، وميول عند جماعات معينة ترتبط بأنماط جسد محددة، تتميز، غالباً، بلون البشرة، أكثر من تشكلها من أناس تجمعهم خصال بيولوجية عميقة الجذور.^(٢) وهذا النوع، من حيث بنيته المعرفية بذلك الطرح، يمهّد لظهور هرميات مائزة بين الجماعات البشرية، ويشكل حافزاً لظهور أجهزة الاضطهاد والتمييز بشكل يماثل بفعالياته العنصرية المعتمدة على البيولوجية المتأصلة، وبذلك نصل إلى نتيجة ظهور فكرة الطبقة المغلقة caste system داخل المجتمعات المختلفة الفكر والثقافة.

ولذلك نرى "وليم هاردي مكنيل" William H. McNeill ينادي بأنه لأجل البقاء البعيد المدى لنوعنا الإنساني فإننا بحاجة إلى ما يسميه جماعات الوجه للوجه الأولية؛ أي تلك الجماعات من النوع الذي عاش فيه أسلافنا، حيث كانت تجمعهم القيم والمعاني والأهداف المشتركة، بما يُشعرنا بأن الحياة جديرة بأن تُعاش بالنسبة إلى الجميع من دون تمييز، حتى بالنسبة إلى أقل الناس مكانة وحظاً بيننا.^(٣) فالكون برمته منذ أن انفجر، وفقاً لأقرب تصور معروف، منذ ما يقرب من ١٣ مليار سنة، بدأ يُكوّن جزراً من الأنظمة والأبنية الشديدة التعقيد، من مجرات ونجوم وكواكب ... إلخ، تشكلت جميعها بفعل تدفقات الطاقة والجاذبية، وتحافظ على بنيتها من خلال أنظمة طاقة خفية معجزة، ما بين هدم وبناء

(١) سايمون ديورنج: الدراسات الثقافية .. مقدمة نقدية، ترجمة ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٢٥، ط ١، ٢٠١٥، ص ٢٦٣ وما بعدها.

(٢) الدراسات الثقافية، المرجع نفسه، ص ٢٦٤.

(٣) جون روبرت مكنيل، وليام هاردي مكنيل: الشبكة الإنسانية .. نظرة محققة على التاريخ العالمي، ترجمة مصطفى قاسم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٥٨، ط ١، ٢٠١٨، ص ٤٣١.

مستمر إلى الأبد، بين حديّ السيروورة والديمومة، والكائنات الحية تتبع المنظومة نفسها، بالقوانين ذاتها، فهي متشكلة من أبنية وأجهزة معقدة تحتاج إلى الطاقة لأجل البناء والبقاء، ومع زيادة تعقيد كل كائن يحتاج إلى المزيد من الطاقة بالتبعية، ولذلك فإن **الدماغ البشري** هو أكبر منظومة مفاهيمية معقدة تستهلك الطاقة بين الكائنات الحية المعروفة في هذا الكون من حولنا؛ فبنيتة هي الأعد بإطلاق، تستخدم أكبر قدر من الطاقة لكل وحدة من الكتلة داخل شبكته النيورونية التي توازي شبكة بنية الكون المدرك ذاتها. وقصة الحياة على الأرض . أنثروبولوجيا . هي قصة التعقيد المتنامي، حتى ظهر علم الآن يسمى **(علم التعقيد Complexity)**، مهمته أن يبحث في هذه النقطة فقط، وفيما يخص **التنظيم التكيفي المعقد**، وستأتي فقرة تفصيلية عن هذا الأمر عند "توماسيللو". ولذلك فإن ما وصل إليه هذا النوع الإنساني من خلال استهلاك أكبر قدر من الطاقة الكونية، بما أراد الله تعالى، وترشيدها وتوظيفها لتطوير هذا الدماغ المعجز، من ثم تفعيل سر الكون الأكبر (اللغة)، هو ما أدى إلى امتلاك ما نسميه بالثقافة والحضارة، وهو ما سمح لنا بما نسميه الهيمنة الإنسانية على الكوكب، وذلك في حدود ما ندرك، لأنني أؤيد الرأي الخاص بأن الإنسان ليس هو المتحكم الأكبر من المخلوقين في كوكب الأرض، فقط لقد استطاع أن يستغل تسخير الأشياء له استغلالا يحقق منفعة الكبرى ضمن العوالم البيولوجية المحيطة به. وبالعودة إلى إطار البنية المعرفية التي أنشأت سياق التواصل بين نوعنا البشري بمختلف أجناسه وأعراقه ... إلخ، فإن عملية التطور الثقافي توضح فصلا من هذه القصة الكونية المبهرة، حيث طوّر المجتمع الإنساني . على مر التاريخ . أبنية أشد تعقيدا وتغلغلا داخل الأنظمة المحيطة، كانت احتياجاتها إلى الطاقة في تزايد متنام يتناسب طرديا مع الزيادة المستمرة في التعقيد، فكانت البداية بسيطة مع **مجتمعات الصيد والجمع**، ولا تزال هي عينا في الحالات الباقية منها في غينيا الجديدة على سبيل المثال وغيرها من بقاع الأرض غير المستكشفة ربما حتى يومنا، وبساطتها نسبية في بنيتها، ثم ظهرت القرى الزراعية الأشد تعقيدا والأكبر عددا والأعد في التراتبية والتمايز الطبقي الاجتماعي، مع مزيد احتياج إلى الطاقة، ثم جاءت الحضارة المبكرة أكثر تعقيدا وأعمق تنافسا وصراعا؛ حيث التخصص النوعي وتقسيم العمل والتبادل بالإكراه ... إلخ، فكان **تاريخ النوع الإنساني موازيا لتاريخ الكون ومشابها لنظامه البنيوي التطوري**. وما يشد انتباهنا أنه في خضم هذا التطور المهيّب لا يُشترط مع هذا التعقيد اختفاء الأبنية والمخلوقات الأقل تعقيدا مع ظهور غيرها، بل إن بعضها يظل باقيا، فما زال هناك غبار كوني بعد مرور ١٣ مليار عام، وما زالت هناك جراثيم في بيوتنا وعلى جلودنا وداخل أجسامنا، ربما هي كما هي منذ ظهورها منذ ٣ مليارات عام. لكن ومن خلال التحليل الأنثروبولوجي للتاريخ الإنساني الحضاري نلاحظ بقوة أن المجتمعات المتطورة لا تتعايش مع تلك المجتمعات البسيطة، حيث يميل المعقد إلى محو الأقل تعقيدا ودمج المتبقي منه واستيعابه داخل أنظمتة الجديدة، ولذلك . كما يرى المفكران مكنيل . فإن **الضغط الانتقائي من أجل التعقيد كان أقوى في المجتمع الإنساني منه في التطور الأحيائي أو الكوني**

عموماً^(١)؛ فالمجتمعات الإنسانية المعقدة لا تترك مجالاً للمجتمعات البسيطة، بينما لم تقلص الزرافات مثلاً من الفرص المتاحة للجراثيم. ورأيي أن معالجة هذه القضية، كما تطرحه أفكار النقد البيئي خصوصاً eco-criticism يكمن في إعادة النظر إلى الطبيعة من حولنا، بمعنى إعادة فحص النسق الطبيعي الكوني، الذي تتميز بنيته بالتواصل الكرنفالي الخلاق، وبحث **القربية النسبية** ما بين الإنسان وغيره من الموجودات في المجتمع الأحيائي. فالهدم والتدمير الرهيب هو عارض سطحي فقط لأجل إبداع تشكلات وأنظمة غاية في البراعة والقوة والجمال، وليس من أجل عرقية أو أنانية كما يحدث في كثير من أنظمتنا البشرية المعاصرة.

٢. نموذج من البنية المعرفية للمفهوم الثقافي للوجود الإنساني

وفي قلب تلك المشكلات التي طرحناها تبقى الحاجة إلى إعادة تقييم مفهوم الإنسان، ومعنى الثقافة الأدبية عموماً في علاقتها بما يُطلق عليه العالم الطبيعي من حولنا، ذاك العالم الذي تُعد الثقافة الأدبية جزءاً منه. وهنا يسأل الفيلسوف الفرنسي وعالم الاجتماع الشهير "جان فرانسوا ليوتارد" Jean-François Lyotard (١٩٢٤ - ١٩٩٨ م) الأسئلة الرئيسية في عمله (غير البشري) the inhuman الذي قدمه عام ١٩٨٨: "ماذا لو كان البشر، بذاك الإدراك الحسي الإنساني، في عملية إكراهية لتحويلهم إلى (غير بشر)، هذا من جانب، ومن جانب آخر، ماذا لو كان ما نعرف أنه مناسب للبشر قد أصبح ملائماً لغير البشر."^(٢) وتبعه في المسار نفسه تقريباً الفيلسوف الأمريكي وعالم النفس وأحد مؤسسي النزعة البراجماتية "جون ديوي" John Dewey (١٨٥٩ - ١٩٥٢ م)؛ حيث آمن بقوة بالمضامين الأنطولوجية (الوجودية) لنظرية "داروين" والنظرية النسبية لأينشتاين، ذات الصيغة الشهيرة: الطاقة = الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء $E=MC^2$. وبالنسبة له، فإن التاريخ البيولوجي الطويل الذي يجمع الجنس البشري بمختلف صور الحياة يعني أننا مستمرين في تداخلنا العميق وانغماسنا في هذا الوجود الحيوي من حولنا. وقد دفعه طرح أينشتاين بخصوص أن الطاقة والكتلة هما حالتان مختلفتان، أو صورتان مختلفتان للمواد الكونية ذاتها، إلى أن يؤيد . بشكل واضح . الاتحاد العميق بين الجسد والعقل، وعليه، فإنه يصف في كتابه (التجربة والطبيعة) العقل والمادة على أنهما ببساطة صفات مختلفة للأحداث الطبيعية (الكونية) التي تُعبّر فيها المادة عن ترتيبها . أي ترتيب الأحداث . المتعاقب، كما سبق أن أشرنا من قبل، من فكرة التوازي بين أحداث الكون وتشكلاته البنيوية، وتوازيها مع تشكلات ما يقع داخل هذه البنية الكبرى، ومن ضمنها بنية الإنسان نفسه. بينما يُعبّر العقل عن ترتيب معنى الأحداث، من خلال ظهور هذه الأحداث في شكل روابط وحالات منطقية^(٣). وهو يقترب نوعاً ما هنا من طرح الفيلسوف

(١) الشبكة الإنسانية، المرجع نفسه، ص ٤٣٣.

(2) Catrin Gersdorf & Sylvia Mayer (eds): Nature in Literary and Cultural Studies, P I, (Theorizing the Nature of Ecocriticism), P 28. Amsterdam, New York, NY 2006.

(3) Nature in Literary and Cultural Studies, Ibid, P 33.

الأرجنتيني الكندي والرياضي الفيزيائي الشهير "ماريو بونجي" Mario Bunge (١٩١٩ - ...) في كتابه الشهير المادة والعقل، وبحوثه القيمة حول علم دراسة البنية المنطقية لتصرفات الكائن البشري. ويزعم "جون ديوي" أيضا أن الآثار الجمالية والأخلاقية تتصل بالطبيعة بصورة ما، وإن كانت هذه الصورة خفية أحيانا، تماما كما أن أي بنية أو نظام ميكانيكي يتم عزوه إلى الطبيعة في العلوم الفيزيائية. ويشرح "ديوي" في كتابه (الفن بوصفه تجربة) أن البشر قد نشأوا من خلال التفاعل بين الكائن الحي والبيئة، وهو ما نراه واضحا بقوة في كل عوالم الأحياء من حولنا وفقا لمقارنته التي تنزع إلى التحقق التجريبي المبتعد عن الحدس.^(١) ولا يمكننا هنا أن نغفل طرح الفيلسوف الفرنسي الشهير "موريس ميرلو-بونتي" Merleau-Ponty (١٩٠٨ - ١٩٦١م)، حيث كان من المتأثرين بقوة بظاهراتية "هوسرل" والجشثالتيين، ومن المهتمين بدور الجسد في التجربة الثقافية الإنسانية عموما. فـ "ميرلو - بونتي" يرى أننا ممتزجون ومتشابكون بصورة معقدة مع (جسد العالم flesh of the world)، وهو الجسد الذي يمثل مجتمعا ديناميا من الأشياء والكيانات من حولنا، وهو الجسد الذي بزغت منه اللغة، ذاك السر الكوني المحوري الذي جعلنا ندخل في إنسانية لا ساحل لها، مترامية عميقة، تشعبت مع أصوات أخرى ربما لا نعرف فحواها في الكون من حولنا، وتداخلت مع أنماط من التواصل لا يمكن تصنيفها بسهولة. إن "ميرلو - بونتي" اعتقد أن اللغة قد نبعت من خلال علاقتنا الجسدية مع العالم، الذي يتحدث إلينا بالفعل بكل ما فيه، ومن خلال المستوى الأكثر تعلقا بخبرتنا الحسية، وعليه فإن اللغة لا تنتمي إلى الجنس البشري، ولكنها تنتمي إلى العالم الحسي الذي نُشكّل فقط جزءا صغيرا منه.

لقد دعا "ميرلو - بونتي" إلى إعادة إيقاظ العالم من حولنا، بما يتطلب الإنصات إلى كل الأصوات الأخرى التي نسيناها، وهي تلك الأصوات التي افترضنا سابقا أنها صامتة، مؤكدا أن اللغة تعيش فقط من خلال الصمت؛ فكل شيء نعزوه إلى الآخرين قد نشأ وأُسْتُثْبِتَ في خضم الأرض ذات الصمت الأكبر، وهي الأرض التي لن نغادرها أبدا. وبرأيه أننا عندما نتكلم من خلال المتعارف عليه مما يخص لغاتنا الفطرية فإننا نخلق ذلك الشيء اللغوي، الذي يعمل بوصفه آلية أو فعلا، أو إساءة وإغواء، لأنه يُظهر بقوة العلاقات المتجذرة عميقا للخبرة المعاشة حيثما تأخذ شكلها، وهو الشكل اللغوي الممثل للحياة كلها وللأفعال وللنوايا ... إلخ، وهو أيضا الشكل الذي نراه في الأدب والشعر. وبذلك التوجه، فإن الأدب يظل . غالبا . مُطَوَّقًا بالصمت المحيط به في القالب الأساسي الذي يُعد ظاهريا (أرضا صامتة)، ولكنها في الحقيقة أرض حاشدة بالأصوات، التي يمكننا إدراكها إذا ضبطنا نغمة حسنا معها بصورة ما^(٢). فالعالم

(١) راجع تفاصيل أكثر حول آرائه الفلسفية المهمة، جون ديوي: إعادة البناء في الفلسفة، ترجمة أحمد الأنصاري، المركز القومي للترجمة، مصر، العدد ١٥٥٩، ط ١، ٢٠١٠، تغير مفهومي العقل والخبرة، ص ٩١. وتغير مفهومي المثالي والواقعي، ص ١٠٧.

(2) Merleau-Ponty, Maurice: the visible and the invisible, Evanston, Northwestern University, 1st ed, 1973, P 118, 126, 155.

العميق للإدراك الخلاق يكمن في كل صور التراكب الطبقي للوجود غير المأهول من حولنا (الطبيعة بكل امتداداتها) الذي يتداخل بقوة مع نفوسنا المتجسدة، وهو أيضا مصدر المعنى الكوني الممكن من خلال الإدراك.⁽¹⁾ وهذا الطرح المعرفي الرصين يقارب لنا الكثير من الأصول الأنثروبولوجية التي يمكننا تفعيلها والإفادة منها في بلورة نسق وسياق نظام تواصلية جديد يدحض النزعات المتطرفة ضمن الجماعات التي تخرج عن صفة الإنسانية وتقع في دائرة لا يمكن توصيفها، لأن حتى تهمة الحيوانية لا تليق بالكائنات المحيطة بنا، تلك التي تدخل معنا في علاقة تكافلية symbiotic غير منفصمة عن وجودنا الحيوي بالضرورة.

تأمل الصورة المرفقة التي توضح التقارب الشديد بين أبنية الأشكال الرياضية الهندسية والتشكلات الفضائية والبيولوجية، بما يبين لنا وحدة المنشأ ووحدة المصير⁽²⁾:

(1) Wolfe, Cary (ed): Zoontologies: The Question of the Animal, Minneapolis, University of Minnesota, 1st ed, 2003, P 3.

(2) Curso Geometría Sagrada - 16 de Noviembre 2014, Lleida, at:

<https://angie639.blogspot.com/2014/11/curso-geometria-sagrada-16-de-noviembre.html>

٣. اتساع البنية: من المعرفية إلى الكونية

تتشغل الأنثروبولوجيا العرفانية الثقافية ببحث التصور الخاص بالسؤال المركزي: ما الذي يجعل الإنسان إنساناً؟ هنا يطرح عالم النفس الألماني الأمريكي الشهير وفيلسوف الإنسان "إريك فروم" Erich Fromm (١٩٠٠ - ١٩٨٠ م) تصوره المهم حول ذلك؛ حيث يرى أن ما يميز الإنسان ليس كامناً في خصائص وجودنا، من مثل أننا كائنات اجتماعية أو سياسية ... إلخ، لكن ما يميزنا هو وجود التناقضات الناتجة عن الإمكانيات المتاحة لنا ولحدود وجودنا داخل أنظمة العالم^(١)، وهي التناقضات التي تدخل في سيرورة من التوازن الدائم وفق أطروحات الزمن الكوني المستمر. ومنبع هذه التناقضات في رأيه هو العقل، والوعي الذاتي، والقدرة الدماغية الهائلة على النمذجة والتصور والتمثل والتحليل، ونلاحظ أن هذه القدرات تفارق مسألة مجرد المعرفة إلى اتساع يوازي اتساع بنية الكون الذي نعيش فيه؛ فرأبي .دوما . ووفق ما تطرحه تجارب علم الأعصاب العرفاني Cognitive Neuroscience أن بنية الدماغ هي بنية قابلة للتوسع المشابه تماماً لتوسع بنية الكون، ولذلك تفاصيل طويلة^(٢). هذه القدرات الهائلة هي التي تسمح لنا بتجاوز الغرائز الحيوانية، لكنها أيضاً تؤدي أحياناً إلى الصراعات والخوف وفقد الاتزان، بما يدفع جنسنا دوماً، على المستوى الثقافي والحضاري والوجودي كله، إلى البحث عن التوازن من جديد لأجل البقاء. وهنا يرى "فروم" أن ما يشكل الوجود الإنساني هو الأسئلة التي تُطرح دوماً على ساحة المعرفة، وليس الأجوبة التي نتوصل إليها، ولذلك أرى أنه محق إلى درجة كبيرة؛ فالأسئلة دوماً تفتح للذهن مسالكاً من التفكير والتصور لا حدود لها، أما الأجوبة فهي - غالباً - تقع في حيز المقاربات المقيدة بحدود الفهم والإدراك، المقيد بدوره بحدود الزمن النسبي بكوكبنا وبنظامنا الشمسي. أما الانفتاح الأكبر على كونية الفهم وإبستمولوجيا التخيل فهو ما يجعل من استمرارية الوعي الإنساني حاضرة على الدوام. ولا أحتاج هنا إلى الاستفاضة في الجانب الفلسفي الميتافيزيقي الخاص بما وراء عالم الأحياء، فما أريد توضيحه هو أن الوعي لا ينتهي، وأنه منتقلٌ ببنيات متغيرة تعبر من مرحلة إلى أخرى داخل سيرورة الوجود الأبدي لعالم الخلق الكبير الواسع. و"فروم" يؤكد مركزية الحاجيات النفسية للإنسان، وهي الحاجيات المرتبطة بعالم الأذهان، وبالعالم الوعي المطلق الواسع، الذي لم نستطع، وأظن لن نستطيع، أن نفكك بنياته الأولية أو أن نصل إلى مكوناتها، لأن البنية المعرفية للوعي الإنساني هي بنية كونية غير محدودة وغير مقيدة، لك فقط، لأجل أن تقترب مما أريد طرحه هنا، أن تفكر في عملية تفكيرك ذاتها، وأن تتخيل داخل خيالك ماذا يمكن أن يفعل الدماغ بوجودك في مدى زمني مدته دقيقة، إنك تستطيع في هذه الدقيقة أن تنتقل عبر المجرات وخلال عوالم لا تعرف عنها شيئاً، وتقابل كائنات خرافية لم تختبر

(١) للتفاصيل، راينر فونك: الأنا والنحن .. التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة، ترجمة حميد لشهب، جداول للنشر والتوزيع، لبنان، ط ١، ٢٠١٦، ص ٢٣٦ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن طعمة: البناء العصبي للغة، دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، دار كنوز المعرفة الأردنية، ط ١، ٢٠١٧. الفصلان الأول والثالث خصوصاً من الكتاب.

وجودها بحياتك ... إلخ، لأن بنية الوعي الإنساني أوسع من أن نحيط بها أو نبسطها في عناصر أولية أو بدائية.

٣. ١ وفي التاريخ العام للعلوم السلوكية كان مفهوم العقل الإنساني غامضاً، حتى مع الربط البيئي لهذا المفهوم بخط التطور الممتد في العلوم الطبيعية. والحق أن الجدل حول هذه القضية لا نهاية له^(١)، لكن أهم ما أُقترح لأجل إعادة التأهيل الثقافي الاجتماعي لمفهوم العقل بوصفه مفهوماً علمياً نافعا هو تحويله إلى الصيغة اللغوية الاشتقاقية (اسم الفاعل واسم المفعول)؛ فالعقل هو **التعقل**^(٢) **Mind is Minding**، هو ردة فعل الكائن الحي بمجمله (أي الإنسان) بصفته وحدة متماسكة قادرة على التعلم والاستمرار في هذا الكون، وهو ما جعل الذين تبّنوا هذا الحل أن يعتقدوا بتحرر الإنسان من أسر العبودية اللفظية للمفهوم بارتباطه بالميتافيزيقا العميقة التي تشل حركتنا في الكون، بما يسمح لنا بحرية أن نزرع وأن نجني في حقننا الوجودي المثمر^(٣). وأشترط في هذا الحل الحيادية والبعد عن مركزية الأنا الأعلى Super-Ego؛ بمعنى أنه لا ينبغي أن نقول إننا نتعقل من خلال ذواتنا فقط، من دون الحاجة إلى أي ارتباط معرفي كوني آخر، لأننا لأجل أن نفهم (العقل) الذي يمثل مركزية الوجود الإنساني والحضاري، بما يشمل من مركزية اللغة فيه، وبما يؤدي إلى مركزية كونية لجنسنا. وفق بعض أقوى الأطروحات. في حدود ما نُدرك، لأجل هذا الفهم ينبغي أن نبتعد عن أي نشاط تفسيري باطني occult أو فحص أي كيان entity باطني بالحدس أو بغيره، كما هو الحال في علم النفس على سبيل المثال مما يُسمى فحص الذات Introspecting؛ فالعقل جزء أصيل من الكون كله، بشموله الوعي الإنساني الواسع الموازي لفسحة الكون الكبير المترامي الأبعاد، وليس قاصراً في وجوده على الحالة التطورية البشرية. وتلك قضايا لها مجال آخر من الفحص والدراسة.

ولذلك نجد كثيرين من العلماء المشتغلين بالدراسات البيئية مهتمين ببحث مسألة الوعي وارتباطه وتطوره الأنثروبولوجي الاجتماعي ممتزجا بمسار تطور العلوم، مثلما فعل . على سبيل المثال . "جابريل فاكاريو" Gabriel Vacariu الذي درس تاريخ الهيمنة الفكرية، ووهم الإنسان، وامتناله الوثائق الأعمى لأنماط تفسير العالم (أو ما يسميه هو **العالم وحيد القرن**)، ويطرح رؤيته ومقارنته لتفاعل المادة والفكر،

(١) راجع للتفاصيل والنقاشات، كليفورد جيرتز: تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩، ص ١٦٩ وما بعدها.

(٢) راجع وجهة نظر الاشتقاق اللغوي لمفهوم العقل من جانب آخر، عبد الرحمن طعمة: البناء العصبي للغة، نهاية الفصل الثالث.

(3) Leslie A. White: The Science of Culture; A Study of Man and Civilization, New York, Farrar, Straus, 1949. The Introduction.

تماما كما فعل "ماريو بونجي" في كتابه (المادة والعقل)، مشيرا إلى وجود عوالم إبستمولوجية مختلفة^(١) Epistemological Different Worlds EDWs.

٢.٣ التطور التراكمي للثقافة ومقاربة لتفسير تعقيد الفكر البشري

دوما نلاحظ تعقد السلوك البشري التطوري بمرور الزمن، خصوصا ما يرتبط بالتكيف مع المعطيات الجديدة، وهو ما أطلق عليه "ميشيل توماسيللو" Tomasello ظاهرة الترس والسقطة Ratchet effect - كما في الشكل الموضح أدناه . فمثلا ما استخدمه البشر على مسار التطور الحضاري لأجل الطرق يختلف من جيل إلى جيل، حيث نلاحظ تنوعا رهيبا في هذه الأدوات، حتى وصلنا في عصرنا إلى تكنولوجيا النانو والميكروية وعالم الكوانتم المتناهي في الصغر ... إلخ. وكما يقول "توماسيللو"، فعلى الرغم من أننا لا نمتلك السجل الأنثروبولوجي التفصيلي لهذه المصنوعات الفنية المتنوعة فمن المفترض أن هذه هي الصورة التي تحولت بها الطقوس والشعائر الدينية والمعتقدات الثقافية واللغات الإنسانية ... إلخ، وأصبحت أكثر تعقدا مع الزمن، كما حدث بها التعديل modification لأجل أن تفي بحاجات اجتماعية جديدة ومقتضيات حضارية تواصلية. وجميع الثقافات أنتجت . على الأقل، وكما يبدو . بعض المصنوعات الفنية وفقا لفرضية الترس والسقطة، التي تعني التعلم بالمحاكاة، وربما من خلال التلقين النشط من خلال الكبار أيضا Instruction، فالتطور الثقافي التراكمي يقوم على ركيزتين^(٢): الابتكار والتقليد (وربما تكتمل الدائرة بالتلقين)، وهاتان عمليتان حادثتان بالضرورة ضمن سيروية جدلية يتحكم فيها الزمن؛ بحيث إن كل خطوة في هذه السيروية تهيئ للخطوة التالية، وهكذا؛ فمثلا في قروود الشمبانزي إذا حدث أن ابتكر أحد الأفراد طريقة أكفا لصيد النمل الأبيض باستخدام العصا بأسلوب جديد فإن الصغار الذين تعلموا صيد النمل عن طريق التناظر، أي التشبه بفعل هذا القرد، لن تستسخ هذه الطريقة تحديدا، لأنها لن تركز انتباهها على التقنيات السلوكية للمبتكر، وستظل تستخدم طريقتها التقليدية في الصيد، بمعنى أن الاستراتيجية الجديدة ستموت بموت مبتكرها من هذه الفصيلة العليا من الرئيسيات، وهذه فرضية "كومار وجودال" Kummer and Goodal عام ١٩٨٥؛ حيث اعتقدا أن الكثير من إنجازات الذكاء الإبداعي من جانب الرئيسيات غير البشرية قد اندثر من دون أن نلاحظها، لأن أفراد هذه الرئيسيات لا يحتفظون بها كما هي. الفارق المعرفي الدقيق الذي جعلنا نفارق هذا التمثل عند الرئيسيات إلى نمط معقد من الإبداع كامن داخل العقل الإنساني العميق هو أن البشر يستطيعون

(١) Gabriel Vacariu: Illusions of Human Thinking; On Concepts of Mind, Reality and Universe in Psychology, Neuroscience and Physics, Springer, 1st ed, 2016, P 56.

(٢) للتفاصيل، ميشيل توماسيللو: الثقافة والمعرفة البشرية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٢٨، ٢٠٠٦، ص ٥٥ وما بعدها. وراجع أيضا ما أورده توماسيللو في النسخة الأصلية الإنجليزية حول طرحه عن الأبنية

اللسانية والمعرفة الحديثة، وعن العرفان الثقافي Cultural Cognition:

Michael Tomasello: The Cultural Origins of Human Cognition, Harvard Univ Press, Cambridge, Massachusetts, 1st ed, 1999, P 134. P 201.

مراكمة التعديلات accumulate modifications مع امتداد الزمن؛ بمعنى أن للإنسانية تاريخاً ثقافياً، بل تواريخ ثقافية متعددة ومتكاملة؛ ذلك لأن عمليات التعلم الثقافي الدائمة لدينا تتصف بالقوة وبالتمكن على نحو مميز، وهذه القوة الفاعلة هي التي جعلتنا نؤسس الحضارات، بفضل العنصر الكبير الداعم لها، وهو التكيف المعرفي الذي ينفرد به الجنس البشري عن غيره من الأجناس في الطبيعة، باعتبار أن بني الإنسان لديهم القدرة على الفهم والتواصل بوصفهم كائنات قصدية لها هدف وجودي، وهذا هو ما يخلق أشكالاً متنوعة من التعلم الاجتماعي الذي يعمل من خلال طريقة الترس والسقطة، بحيث يحافظ بأمانة على الاستراتيجيات المبتكرة حديثاً داخل الفريق الاجتماعي، إلى أن يظهر ابتكار آخر يحل محلها، وهكذا، وهو ما يتمشى . بصورة ما . مع أطروحة التناقضات التي ذكرناها آنفاً عند "إريك فروم"؛ حيث تتزن كل النماذج اتزاناً مدهشاً في نسيج الوعي الإنساني الخلاق، وهو اتزان يمثل جزءاً من اتزان قوى الكون ذاتها، وبذلك اتسعت بنية المعرفة الثقافية الإنسانية لتندمج في بنية الكون كله^(١).

(١) راجع تفاصيل تطبيقية ومقترحات أخرى، عبد الرحمن طعمة: البحث المعرفي المعاصر .. نماذج من فلسفة اللغة وإبستمولوجيا العلوم، دار النابغة، مصر، ط ١، ٢٠١٨، النموذج الخامس (الابتكار العلمي وأسس التطبيقية المعرفية).

وأعقد نمط تعبيرى تواصلى، تخيلى وتخيلى، أبدعه العقل البشرى هو الشعر، والجدل الثقافى حول بنائيه العرفانية يحتاج إلى دراسات مطولة، فقط أذكر أن نظرة "كانط" للشعر بوصفه نمطا ذهنيا تخيليا للعالم كانت نظرة تؤمن بوجود قالب فطرى سابق للوجود المطلق، وهي نظرة ذات أصول رومانسية مغلقة بالتصوف تتنكر للثقافة. كما يرى وحيد بن بوعزيز. متناسية أنه لولا الثقافة لما صُقلت هذه الطبيعة من حولنا. ولذلك فالثقافة هي الوجود بالفعل لاشتغال الذهن من خلال الإدراك الحسى، لأن الطبيعة هي تلمس نواتج هذا الإدراك بالقوة؛ فالطبيعة والكون يمثلان محركات الإدراك والتخيل. الشعر مثلا يتنفس في بلازما ثقافية منفتحة ويموت في خندق ثقافى ميت، كما يرى بن بوعزيز وغيره من نقاد ما بعد الحداثة^(١). والنظرة إلى الثقافة حينما لا تكون جدلية وجمالية تجعلك تعتقد بأنها ثابتة وقبلية. وهناك مستوى خفي للثقافة حينما تتعرض للتحويلات؛ فالثقافة من جانب التحليل الأنثروبولوجى تتضمن الأخلاط والامتزاجات، فضلا عن ذلك، فالطبيعة لا تهتدي إلى نفسها بنفسها، لأنها بحاجة إلى قوة أخرى تحركها، وربما يكمن جانب كبير من هذه القوة في الذهن الذي هو جزء من قوة الكون ذاتها. وقد فصل حازم القرطاجنى وأفاض في مثل هذه المسائل؛ إذ انصب اهتمامه على كيفية تشكيل الصورة وطريقة انتظامها في العقل الإنسانى المعقد؛ حيث تحمل الصورة عنده معنى الاستعادة الذهنية لمدرَك حسى غير موجود في الإدراك المباشر، ومن ثم تصبح الصورة عنده ذلك الاسترجاع ذهنى والتذكر للخبرات الحسية البعيدة عن الإدراك المباشر، الذى يُثار في مخيلة المتلقي عن طريق المنبهات اللفظية الحاصلة في الفعل اللغوى الأدبى، ويؤكد ذلك قوله: "ومحصول الأقاويل الشعرية تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان (عالم الأعيان) من حسن أو قبح حقيقة."^(٢) **فمادة المعنى** إذن هي الطبيعة الخارجية المنطبعة في ذهن الإنسان، وبالتالي فإن كلام الإنسان هو صدئ مُعدّل لهذه الحقائق الواقعية، لا يُشترط معه التطابق. وهذا. برأى. هو لب عرفانية التواصل الحضارى ضمن أنساقه الثقافية في مجتمع الإنسان على مدى المسار التاريخى.

ووفق كل ما طرحناه سابقا فإن **التطور الأنثروبولوجى الثقافى** هو في الواقع **تطور لاماركى**^(٣)؛ بمعنى أن السمات والمهارات المكتسبة في جنسنا الإنسانى يمكن أن تنتقل. خلافا لغيرنا. عبر الأجيال،

(١) للتفاصيل، محمد خطاب: الشعر بين الطبيعة والثقافة، مجلة كتابات معاصرة، العدد ١٠٧ يونيو، ٢٠١٨، ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) حازم القرطاجنى: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ط ١، ١٩٦٦، ص ١٢٠. وراجع المزيد من التفاصيل، عبد الرحمن طعمة: البناء ذهنى للمفاهيم .. بحث فى تكامل علوم اللسان وآليات العرفان، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط ١، ٢٠١٩، الفصل الثانى من الكتاب.

(٣) نسبة إلى عالم الأحياء الفرنسى "جان باتيست لامارك" Jean Baptist Lamarck (١٧٤٤-١٨٢٩ م)، الذى ذهب إلى أن الكائن الحي يستطيع أن ينقل السمات التى يكتسبها خلال حياته إلى نسله، وهى الفكرة التى تعرف باسم "وراثه الخصائص المكتسبة" أو "الوراثه الناعمة" soft inheritance. الشبكة الإنسانية، مرجع سابق، هامش ص ٤٣٤.

ونعم إن الجنس الإنساني متميز ومتفرد في الوجود الطبيعي، لكن هذا لا ينبغي أن يسمح لنا بالخروج عن حدود السيطرة لنعتقد أننا الجنس الأوحـد في الـكون المستحق للوجود، فنحن نحمل مسؤولية كبيرة ضمن وجودنا بين غيرنا من أنواع الخلق المختلفة. هذا التطور اللاماركي يفسر نوعا ما كيف أن لغة معينة تنتقل من دماغ إلى آخر، ومن جيل إلى آخر، من دون الحاجة إلى عمليات الطفرات الوراثية البطيئة أو القافزة leaping ومن دون الحاجة إلى الخضوع إلى الانتقاء الطبيعي البطيء وفقا لمن يؤمنون به إيماننا راسخا. وقد مكنت سرعة هذا التطور الثقافي بعض الجماعات الإنسانية من سبق غيرها، بل والسيطرة عليهم ودمجهم كذلك، وهو ما لا يحدث في عالم التطور الأحيائي الطبيعي من حولنا، لأنه أبطأ، ما يجعل الكائنات الأشد تعقيدا تتطور ببطء شديد، ويعطي الآخرين . عادة . الوقت للتكيف. وكانت الوسيلة التواصلية الحضارية هي ما مكّن الأسلاف من بني الإنسان من تطوير الحضارات والهيمنة على الكوكب، وظهرت شبكات اجتماعية تزداد تعقيدا وتعقيدا كل ثانية، في تدرج غير محدود نحو المزيد من التعقيد، الموازي لتعقيد الكون كله. لقد مر التاريخ الإنساني بمراحل بدأت من التنوع إلى التشابه البسيط إلى التشابه المعقد ، فمثلا عاشت بعض الجماعات الإفريقية في مجتمعات بسيطة يتحدثون القليل من اللغات، ويستخدمون مجموعة محدودة من استراتيجيات البقاء، وبالنهاية ظهر التنوع الثقافي الأوسع، تمثل في تعقد اللغات وتنوعها، وتطور الأدوات، بل وتطور التعقيد الاجتماعي إلى ظهور أشكال من السياسة تمثل في المشيخات والدول المدنية والإمبراطوريات ... إلخ، بما يجعلنا نلاحظ أنه تعقيد يسير نحو التمايز الثقافي ونحو اللاتجانس، لكنه . في الوقت نفسه . تعقيد متبلور في جزر من بحر متماثل شبه متكامل، بحيث يشكل المجتمع الإنساني في الوقت الراهن شبكة واحدة ضخمة تقوم على التعاون والتنافس، تغذيها تدفقات هائلة لا حدود لها من المعلومات والطاقة^(١). أليس هذا التدفق في المعلومات والطاقة الحاكم لتطور ثقافتنا ووجودنا الحضاري هو جزء بسيط جدا من تدفق الكون الفسيح الذي وجدنا أنفسنا فيه، محاولين فهم شيء من حقائقه المذهلة؟

إن الإنتاج العلمي المعرفي والشعوري للبشرية كلها لا يخرج عن: العلم والفلسفة والفن؛ فالعلم ما هو كائن، والفلسفة ما يجب أن يكون، والفن ما هو ممكن، والإطار الحاكم للتحرك بين ضلوع هذا المثلث المعرفي هو الدين، الذي مثّل ضابطا مرجعيا لمختلف المجتمعات في تطورها المستمر. وقد فُطر الإنسان في محاولته الحفاظ على وجوده على حب ثلاثة: الكمال والجمال والنوال؛ وتميز عن الكائنات بإدراكه أنه يدرك، فاتسعت بنية وعيه من مجرد معارف بسيطة يجمعها لأجل البقاء إلى شمولية كونية ظل يتساءل وسيظل يسأل عن مكنوناتها وأبعادها وماهياتها، مستعينا بكل الوسائل الممكنة التي تمهد له يوما بعد يوم أسبابا يصل من خلالها إلى جزء من الحقائق غير المحدودة.

(١) الشبكة الإنسانية، مرجع سابق، ص ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

المراجع:

١. جون ديوي: إعادة البناء في الفلسفة، ترجمة أحمد الأنصاري، المركز القومي للترجمة، مصر، العدد ١٥٥٩، ط ١، ٢٠١٠.
٢. جون روبرت مكنيل، وليام هاردي مكنيل: الشبكة الإنسانية .. نظرة محققة على التاريخ العالمي، ترجمة مصطفى قاسم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٥٨، ط ١، ٢٠١٨.
٣. حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ط ١، ١٩٦٦.
٤. راينر فونك: الأنا والنحن .. التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة، ترجمة حميد لشهب، جداول للنشر والتوزيع، لبنان، ط ١، ٢٠١٦.
٥. سايمون ديورنج: الدراسات الثقافية .. مقدمة نقدية، ترجمة ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٢٥، ط ١، ٢٠١٥.
٦. عبد الرحمن طعمة: البناء العصبي للغة، دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، دار كنوز المعرفة الأردنية، ط ١، ٢٠١٧.
٧. عبد الرحمن طعمة: البحث المعرفي المعاصر .. نماذج من فلسفة اللغة وإبستمولوجيا العلوم، دار النابغة، مصر، ط ١، ٢٠١٨.
٨. عبد الرحمن طعمة: البناء الذهني للمفاهيم .. بحث في تكامل علوم اللسان وآليات العرفان، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط ١، ٢٠١٩.
٩. كليفورد جيرتز: تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩.
١٠. ميشيل توماسيللو: الثقافة والمعرفة البشرية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٢٨، ٢٠٠٦.
١١. محمد خطاب: الشعر بين الطبيعة والثقافة، مجلة كتابات معاصرة، العدد ١٠٧، يونيو، ٢٠١٨.

12. Catrin Gersdorf & Sylvia Mayer (eds): Nature in Literary and Cultural Studies, P I, (Theorizing the Nature of Ecocriticism). Amsterdam, New York, NY 2006.
13. Curso Geometría Sagrada - 16 de Noviembre 2014, Lleida, at: <https://angie639.blogspot.com/2014/11/curso-geometria-sagrada-16-de-noviembre.html>
14. Gabriel Vacariu: Illusions of Human Thinking; On Concepts of Mind, Reality and Universe in Psychology, Neuroscience and Physics, Springer, 1st ed, 2016.

15. Leslie A. White: *The Science of Culture; A Study of Man and Civilization*, New York, Farrar, Straus, 1949.
16. Michael Tomasello: *The Cultural Origins of Human Cognition*, Harvard Univ Press, Cambridge, Massachusetts, 1st ed, 1999.
17. Merleau-Ponty, Maurice: *the visible and the invisible*, Evanston, Northwestern University, 1st ed, 1973.
18. Wolfe, Cary (ed): *Zoontologies: The Question of the Animal*, Minneapolis, University of Minnesota, 1st ed, 2003.